فى رسالة الغفران لابى العلاء

بقـــلم

السباعى بيومى الاستاذ بكلية دار العلوم

— ٤ —

رابعا السخرية والتهكم فيها

إذا أردنا أن نرجع السخرية والتهكم ، إلى أصلها الأصيل وقرارها المكين ، لم نجد ذلك الأصل إلا الغرور والعبث ، فالمغتر الذى يظهر بما ليس من شأنه ، كالقصير المتطاول والشيخ المتصابى والخفيف المتوقر ، مادة للسخرية والتهكم ، والعابث الذى يحاول مالا يقدر عليه كالطفل يجهد نفسه ليغلب أباه ، والعاجز يسعى إلى ماهو منه فى السماء ، محل سخرية به وضحك عليه من الناس أيضا ؛ وإذ كان هذا كذلك ، وكان موقف أبى العلاء من الناس أن كل دعاويهم فى نظره غرور لا حقيقة له ، وأن كل غاياتهم عنده عبث لا جدوى منه ، انحتم أن يكونوا أمامه محل السخرية والتهكم ؛ لما هم عليه من عبث وغرور ، وأن يكون هو منهم المستهزىء بهم الضاحك عليهم ، لما ركب فى طبعه من تشاؤم جعله يستخف بالدنيا استخفافا يحقر فيها كل نعيم ، ويسلبها ما يستحق أن يعمل له ويسعى إليه ، هذا إلى تجرده من الغرور والعبث ، بقدر ماغرق فيه الناس إلى الآذقان . ولقد قوى من ذلك التشاؤم فى نفسه ، ما جبل عليه من دقة إحساس أضفى عليه رهافة الشعور ، ومن توقد ذكاء أنفذه إلى خبايا الأشياء وبواطن الأمور ، فنأى بجانبه عن أن يكون محل هزؤ وسخرية ، وتأصل هذا النأى فى نفسه ، حتى ضرب عليها العزلة ، التى رأى فيها دون غيرها ، الوقاية مما يخاف ، ولكن نصب نفسه فى عزلته للسخرية من الدنيا وما فيها ، وبخاصة الناس ، بل للسخرية من الآخرة والدين فى غير احتراس ، وظهر هذا فى أدبه من شعر ونثر ، متجليا فى الأول أكثر ما تجلى فى اللزوميات ، ومتألقا فى الثانى أكثر ما تألق فى

رسالة الغفران ، على أن سخريته جاءت فى الأولى — ولا شأن لنا بها الآن — عابسة جادة قاسية ، بقدر ما جاءت فى الثانية باسمة ماجنة آسية ، كالذى تراه بعد، فى بعض ما يساق من حديث : —

١ — سخر أبو العلاء فى رسالته من النحويين ، حين جعل شيخها ابن القارح على بن منصور يقول لعدى بن زيد ، لقد هممت أن أسألك عن بيتك الذى استشهد به سيبويه وهو قولك .

أرواح مودع أم بكور أنت فانظر لأى حال تسير

فانه يزعم أن أنت يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر ، وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته ، نعم استهزأ بهم حين جعل عديا يرد على الشيخ فيقول «دعنى من هذه الأباطيل» .

وأمعن فى السخرية بهم ، حين جعل الشيخ وقد ذكر وهو لدى خزنة النار المهلهل عدى بن ربيعة التغلبى وسأل عنه باسمه فقيل له زد فى البيان فقال ، الذى يستشهد النحويون بقوله .

ضربت صدرها الى وقالت يا عديا لقد وقيتك الأواقى

وقوله

ولقد خبطن بيوت يشكر خبطة أخوالنا وهم بنو الأعمام

وقوله

ما أرجى بالعيش بعد ندامى كلهم قد سقوا بكأس حلاق

كما استشهدوا له بأبيات غيرها ، فيقول الخزنة «يا هذا إنك لتعرف صاحبك بأمر لا معرفة عندنا منه ، ما النحويون ؟ وما الاستشهاد ؟ وما هذا الهذيان ؟ نحن خزنة النار فبين غرضك تجب إليه .

٢ — وسخر أبو العلاء من اللغويين ، حين حشا رسالته بغريب اللغة الذى لم تكن تدعو إليه حاجة من بيان ، وكيف والبيان يدعو إلى نبذه وتركه ، والذى لم تدفعه إليه خلة من طبعه ، تكون لو كانت الغرور ، وكيف وقد كان فى غير خلاف ، أشد الناس تواضعا وأبعدهم من غرور وإعجاب ، لا من أشدهم وأبعدهم،

إنما هى السخرية باللغويين ، والرغبة فى أن يلهيهم بما اعتادوا أن يلهوا به من غريب ، متكلفا منه أشد التكلف ، وبمعنا فيه أيما إمعان ، استمع إليه يقول « أمرهين لا يعدل بنابت من حصيص أو ماحقر من خربصيص » يعنى بالأولى بقلة رملية حامضة ، وبالثانية حصية فى الرمل ذات بصيص ، ويقول « وأنت لاه بعفارتك » أى خيثك ، ويقول « فوجدت حسناتى قليلة كالنفأ فى العام الأرمل » يعنى القطع المتفرقة من النبت ، ويقول « من هذا الأتاوى » ؟ أى الغريب ، ويقول « فاذا حصلت النحوص فوق الأوفاض » يعنى اللحوم والأوضام ، ويقول « وهى ذات أدحال وغاليل » يعنى مصانع الماء وأودية النبات ، ويقول « فجعلوا يتفكتون » أى يتعجبون ، وهكذا مما لا تعليل لوجوده إلا ما ذكرنا ، من السخرية باللغويين وتلهيتهم بما اعتادوا أن يلهوا به ويتهالكوا عليه .

٣ — وسخر أبو العلاء من الشعراء فى شخص الحطيئة إذ كان أحقهم بالسخر ، وذلك حين يقول عن الشيخ وهو يسير فى الجنة « فيذهب فاذا هو ببيت فى أقصى الجنة كأنه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة ، وعنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك ، فيقول له يا عبد الله لقد رضيت بحقير : فيقول الرجل ، والله ما وصلت إليه إلا بعد دياط ومياط ، وعرق من شقاء ، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن ، فيقول له من أنت فيقول أنا الحطيئة ، فأنت تراه لم يرض له فى الجنة إلا بكوخ حقير فى أقصاها ، على كثرة بيوتها المتوسطة العظيمة ، ثم لا يكون عنده من الشجر ، وما الجنة إلا الشجر ، إلا واحدة قصيرة خبيثة الثمر ، ويأبى إلا أن ينزع عنه الثوب الذى لسكان الجنة ، ويذكر أنه لم يصل إلى ذلك ، إلا بعد جهد ومشقة ، ولا ينهى الحديث عنه ، حتى يسجل خبث نفسه الذى كان له طبعا ، فيجعله يجحد شفاعة قريش فى دخول الجنة إذ يود أنها لم تكن .

٤ — وسخر من الأدباء فى شخص شيخ الرسالة نفسه ، وفى الصدر منها ، حيث يقول بعد أن أثنى على رسالته إليه « وقد غرس لمولانا الشيخ الجليل إن شاء الله ، بذلك الثناء ، شجر فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاط ، والولدان المخلدون ، فى ظلال تلك الشجر ، قيام وقعود يقولون ،

ـ والله القادر على كل شيء عزيز ـ نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى بن منصور ، تخيأ له إلى نفخ الصور . . . ، وكأنه وضع بين الولدان وما يقولون ، هذه الجملة « والله القادر على كل شيء عزيز » كيلا يفطن ابن القارح إلى هزئه بعقله فيما يقول .

٥ ـ وسخر من الآخرة فى نعيم جنتها وجحيم نارها ، فقد صور ذلك النعيم وما فيه ، بالصور الممعنة فى التخيل والتوهم ، من حيث المآكل والمشارب ، والكسا والمساكن ، وسائر المتع ، كالتلذذ بالحور الحسان المنشقة عنها الثمار ، والتشنف بالقيان المتنفضة عن الأوز مغنيات بأعذب الألحان ، وصور الله سبحانه إزاء ذلك التنعم ، بصورة الخالص لهذا التنعيم يفتن فيه ويغالى ، كأنه لا عمل له سواه ، ثم نكص على عقبيه يتنقص هذا النعيم ، ويظهر أهل الجنة حياله ، بمظهر الزاهد فيه ، المتمنى بعض ما كان فى الدنيا من متاع ، كالمأدبة التى أرادها شيخ الرسالة فى الجنة للأدباء أن تكون من مآدب الدنيا ، وكالشراب الذى أراده أبو ذؤيب لنفسه ، حلوب ناقته مشوبا بجنى النحل ، كما كان يفعل فى دنياه ، إلى غير هذا وهذا من أشباه وأمثال ، كما صور جحيم النار بالصورة التى ليس فيها قوة الردع ، والتى تدع أهلها لا يزالون يفوهون ، بما ليس معقولا صدوره ، ممن فى مثل عذابهم لو كان للعذاب بالغ الايلام ، ومن آيات ذلك ولعلها آية الآيات ، إظهاره إبليس وهو فى جهنم يصلى نارها ، بمظهر الذى لم يكف عن غوايته والذى لا يزال يحاول فتنة أهل الجنان ، استمع إليه يقول عن لسانه للشيخ « إن الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات ، واستمع إليه يقول للزبانية وهو بين أيديهم فى المقامع والأغلال ، حين أطال الشيخ تقريع الأخطل على مسمع منه ، وهو ينظر إليه فى النار ، « ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، فلو أن فيكم صاحب نجيزة قوية ، لوثب إليه وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى النار » .

٦ ـ وأخيرا سخر بالدين فى أعظم صلاته بالله وهو القضاء ، ها هو ذا يروى عن أوس بن حجر أنه قال وهو فى النار معترضا على قضاء الله « ولقد دخل الجنة

من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق ، كأنها النشب فى الدار العاجلة ، وهاهوذا يذكر عن النابغة الجعدى وهو يروى خصامه فى الجنة مع الأعشى ، أنه قال لهذا الأخير فيما قال، وهو أمعن فى الاعتراض على ذلك القضاء « اسكت ياضل بن ضل فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاءالله ، لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولوجاز الغلط على رب العزة ، لقلت إنك قد غلط بك » .

وبعد فهكذا كان أبو العلاء كثير السخرية فى رسالته ، إلى درجة جعلت الأستاذ العقاد يقول عن هذه الناحية منها « وحسبنا أن نقول إن الرسالة كلها ، فى وضعها وفى تركيبها ، وفيما بدا من معانيها القريبة ، وما انطوت عليه من المغازى البعيدة والمضامين الخفية ، إن هى إلا ضحكة واحدة متصلة ، يجهر بها المعرى حينا ويوارب بها أحيانا ، وقد يغرق فى السخر حين يوارب ويداري ، حتى تخاله ساخرا من السخر ، مترفعا عن الاهتمام باظهار قصده ، لشدة استخفافه وقلة مبالاته » .

وهكذا كان أبو العلاء جريئا فى تلك السخرية حتى على الدين وعلى الله ، إلى درجة جعلت الدكتور طه ، مع إعجابه بما كتب العقاد عن سخريتها ، يأخذ عليه عدم تعرضه لهذه الناحية الجريئة فيها فيقول « إن الذى يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية ، لا يستطيع أن يسلم بأن أبا العلاء كان مسلما حقا ، وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث ، لأن فيه شيئا من الحرج ، ولكنى أحب أن يكون الناس جميعا مثلى ، يكرهون أنصاف الحقائق ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شىء » .

السباعى بيومى

فى ذمة الله المرحوم

الأستاذ محمد عبد المنعم خطاب

للاستاذ السيد احمد العجاوه

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله — دوما — فإننى رأيت ـ الصديق ـ الحر ليس له عمر

فى يوم الثلاثاء ، ٢٥ من ربيع الثانى ، سنة ١٣٦٦ ، الموافق ١٨ من شهر مارس ١٩٤٧ ، اختار الله لجواره شابا تقيا ، وعالما مهذبا ، وصديقا وفيا ، كان فى حياته مثال الطهر ، والوداعة ، والجد ، والاستقامة ، طالبا ومدرسا ، هو المرحوم الأستاذ محمد عبد المنعم مصطفى خطاب . المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنات .

التحق بتجهيزية دار العلوم سنة ١٩٢٧ ، وكان معروفا بين رفاقه وأساتذته ، بقامته المديدة ، وعينيه الواسعتين ، وتوفره على التحصيل والدرس ، وتحسين الخطوط ، وجمال الكتابة . واشتهر بالحياء البالغ ، والخجل الشديد ، والابتسامة الهادئة ، مع بعد عن الجدل ونفور من الخصام ، فى صلاح ، وتقوى ، وعفة لسان .

لم يتغير سلوكه منذ التحق بالتجهيزية حتى تخرج فى دار العلوم ، بين الخمسة الأوائل سنة ١٩٣٦ . ولم يتغير سلوكه بعد وظيفته ، بمدرسة السلطان حسين بمصر الجديدة ، ومدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بطنطا ، والفنون الطرزية بالظاهر ، وطنطا الثانوية للبنات . بل استقر فيه هذا الطبع ، وتمكنت منه تلك الفضائل . وظهرت مواهبه فنفح أصدقاءه الوفاء ، وصدق الأخوة ، ولطف العشرة ، وكريم المجاملة ، وأدب الحديث ، وكان يتفقدهم . ويسعى إليهم . كما كان شديد المحافظة على صالح تلاميذه وطالباته ، حريصا على تهذيبهم ، وهدايتهم حفيظا على توجيههم إلى المثل العليا . هذا وكان رحيم القلب ، تهزه حاجة البائس . ويبكيه منظر الحزين .

وكان سمحا إذا باع وإذا اشترى ، ولعل ذلك راجع إلى فرط حيائه . وشدة خجله.

وكان يقدر كل إنسان ، ويحفظ لأساتذته أسمى معانى الولاء والتقدير . وظل يضع نفسه منهم موضع الابن البار من الآباء الأجلاء .

وكان يمنح الاخلاص لمن يحب . ويفديه بروحه ، وبكل ما يملك من جهد وقوة ، لا يرتجى غرضا ، ولا يهدف إلى منفعة شخصية ، كبير الثقة بالله ، عظيم الاعتماد عليه. وكان يحترم ويقدر العلماء وله موقف رجولة وتضحية ، وقفه بجانب المرحوم حضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد صبرى أبو علم باشا — يوم زيارته لمنوف سنة ١٩٣٨، فتأثر له . وبقى دائما يردد : ويلاه من السياسة التى تعتدى على العلماء الأفذاذ ، ويلاه من الخصومة الجامحة .

* * *

يعلم الله مقدار حزنى عليه ، ومبلغ تأثرى وبكائى وفجيعتى ولوعتى ، وكيف لا أبكيه ذوب قلبى ، وهو العف الطاهر النقى ، وهو الصديق البار الوفى ، وهو الكامل المهذب الولى ، وهو الرجل المؤدب التقى .

كان أخا وصديقا . يمثل الرجولة ومكارم الأخلاق . حتى كأنه المقصود بالقول الحكيم ؟ زب أخ لك لم تلده أمك؟

زاملته وعاشرته فأحببته ، وصافيته واصطفيته فتعلق قلبى به ، فاذا فرق الموت بينى وبينه ، فقد أسلمنى إلى الألم الممض والحزن العميق .

* * *

لا الدموع ترده ، ولا البكاء يعيده ، ولا الحزن عليه مدى الدهر يوفيه حقه،

لكنها الأقدار ليس بناجع فيها سوى التسليم والأخلاد

وسنظل نذكره ولا نبصره ، وننادیه ولا نلاقيه ، ونجزع لفقده ونتقبل العزاء فيه ، وهو الذى فقد شبابه ، ومضى بآمال وطموح وغايات ، وفارق إخوانه وصحابه . وأرمل حرمه ، ويتم أولاده وتركهم فى حزن ويتم مدى الدهر ، يتجدد ويتولد ، كلما سمعوا اسمه ، أو لمحوا رسمه ، أو ناداه « نبيل » ، أو دعاه ، « سمير »

أو قلبت فى أوراقه « وفاء » ، أو رأت ثيابه حرمه والدة هؤلاء ، أوحل موعد المدرسة ، أو دنا موسم الامتحانات ، أو عادت الاجازة أو جاءت مناسبة للتعليم والمدرسة ـ وما أكثرها ـ :

أبكيه ثم أقول معتذرا له وفقت حين تركت ألام دار
جاورت أعدائى. وجاور ربه شتان بين جواره وجوارى
فكأن قلبى قبره . وكأنه فى طيه سر من الأسرار

* * *

إنى أراه أمام ناظرى . انى أبصره فى قلبى . أنى أحفظ حديثه فى سمعى . هو بقامته المديدة . وابتسامته الوادعة . يكلمنى . ويأبى أن يسمح لى بالعودة الى بلدى ـ وقد ذهبت لزيارة بمنوف فى صيف هـذا العام ـ لأنه لايريد أن أفارقه . فارقنى وما نبهنى

أأعتب عليه وما آلمنى ؟ أأستطيع أن أودعه وما ودعنى ؟ أيحول القضاء دون أن أشيعه وكنت أرجو أن يشيعنى .

قد كنت أرجو أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء

معذرة إذا غلبنا الدمع والأسى . وقدحنا الخطب والردى .

رباه !! ياواسع المغفرة ، ارحم عبد المنعم، ما وسعت رحمتك .

رباه !! يا برا باليتامى ، ارع نبيلا ، وسميرا ، ووفاء ما وسع برك

رباه !! يا ملهم الصبر . أنزل السكينه والصبر على قلب زوجه الحزين

رباه ؟ أكرم مثواه . وطيب ثراه ، وأسكنه فى جناتك مع الصديقين . والشهداء . والصالحين . وحسن أولئك رفيقا .

* * *

إن الدموع قد تخف أو تجف ، ولكن يتم نبيل وسمير ووفاء ـ وما يزيد عمر الكبير منهم على الرابعة ـ سيظل وصفا يستحق عطفا . . .

ولكن . . . رعاهم الله . . . وأنت يا أباهم رحمك الله :

الصديق الحزين
السيد أحمد العجان

الفهـــــــرس

احتفال كلية دار العلوم بالمولد النبوى لسنة ١٣٦٦
بمسرح حديقة الأزبكية

١ — « للعميد والأساتذة »

صفحة	الموضوع		
٣ —	كلمة التحرير		
٤ — ٥	كلمة عميد الكلية زكى المهندس بك		
٦ — ١٥	الهمزية العصماء للأستاذ المنشاوى		
١٦ — ٢١	« ولد محمد فكان رحمة للعالمين » للأستاذ السباعى بيومى		
٢٢ — ٢٦	« فلق الصباح » للأستاذ الشاعر على الجندى		
٢٧ — ٣٠	« لقد من الله على المؤمنين » للأستاذ الشيخ على حسب الله		
٣١ — ٣٣	« ذكرى المولد الكريم » للأستاذ الشاعر عمر الدسوقى		

٢ — لجماعة الشعر بالكلية

٣٤ — ٣٥	« فجران »	للأديب احمد هيكل	من أسرة عكاظ
٣٦ — ٣٧	« موكب النور »	« محمد عبد الفتاح ابراهيم	« « المربد
٣٨ — ٣٩	« حياة فى ذكرى »	« محمد الهادى السيد اسماعيل	« « عكاظ
٤٠ —	« وحى ميلاد »	« السودانى أبى القاسم عثمان	« « المربد
٤١ — ٤٢	« الميلاد النبوى »	« رياض الحمفناوى	« « عكاظ
٤٣ — ٤٤	« من وحى المولد »	« محمد هاشم عبد الدائم	« « المربد
٤٥ — ٤٦	« تفاءلت »	« كمال بسيونى	« « عكاظ
٤٧ — ٤٨	« سأصبر فى هواى »	« محمد محمد اسماعيل عبده	« « المربد
٤٩ —	« أغاريد »	« سعد دعبس	« « عكاظ
٥٠ — ٥١	« الفجر »	« السودانى محمد محمد على	« « المربد

احتفال جماعة دار العلوم بناديها به
٥٢ -- ٦٨ « تحقيق مولد النبي » للأستاذ محمد فياض بك
٦٩ -- ٧٠ قصيدة الأستاذ محمد حليم عبد الحنى
٧١ -- ٧٥ « فى رسالة الغفران » للأستاذ السباعى بيومى (٤)
٧٦ -- ٧٨ فى ذمة الله المرحوم محمد عبد المنعم خطاب للأستاذ السيد احمد العجان
٧٩ -- ٨٠ الفهرس